صورة من حقيقية من
صور الحياة في بغداد :

الصيف للفقير ؟!

« سينتهي القارئ — اذا كان شعبياً — من النظر الى هاتين الصورتين وهو معتقد ولاشك ان الفقير لاصيف له ولا شتاء ، وان هذه العبارة الشائعة : « الصيف للفقير » لاتعبر عن الحقيقة في بلادنا فما لامثال هذا الحمال الذي ستعرفه ، و ا الفلاح ابن الشعب الذي يحيي فيما بين الرافدين من راحة في الصيف ولا هناءة . الرمضاء تلفحه والشمس تصليه ناراً طول نهاره وهو يكد ويكدح في سبيل لقمة من الخبز ان ظفر بها فهو سعيد !»

(المحرر)

« أويلاخ » قال علوان الحمال بلغته العامية وهو يخاطب نفسه : « ان هذا الحر ليميتني » . وكان مضطجعاً على عباءته المرقعة السوداء ، متوسداً حباله ، في ظل طنف جديد مطل على الشارع ، يتصبب منه العرق .

وكان الوقت ظهراً .

وكان الرجل متألماً، وان لم يكن تألمه قويا صارخاً ، لانه كان مستسلماً ، لاثائراً ولا ناقماً على من قدر له عيشته الذميمة التي كان فيها . وكانت تؤذيه الروائح الكريهة المنبعثة من روث حمار سقاء كان مربوطاً الى جانبه بينما كان صاحبه داخل الدار يفرغ فيها ماحمل اليها من ماء . بيد أنه احتمل الاذى ساكناً صامتاً .

ومضت هنيهة من الوقت . ثم مر به صاحبه جاسم الفراش راجعاً من ديوان الحكومة منصرفا الى اهله ؛ فاستغرب وجوده هنالك في تلك الساعة

من النهار ، ولفح القيظ يشوي الوجوه . وكان يعطف عليه فوقف يسأله في رفق ورحمة عن حاله :

— ماخطبك يا أخي ؟

وكان يحمل في احدى يديه بطيخة حمراء (١)

— ان هذا الحر ليميتني يا أخي . هذه جهنم

ورفع رأسه فنظر اليه نظرة قلقة حائرة .

— ولماذا ترقد هنا ؟ اذهب الى البيت ...

— البيت أدهى وأمر . الشمس تذبح الحمار .

— اذهب الى المسجد انه لمكان بارد .

وكان علوان الحمال يتروح بطرف ردائه والعرق مايزال يتصبب منه :

— رحت فطردني المؤذن . قال لي « ليس هذا المحل بمأوى للمتشردين » وقد علمت ان الامام أضحى منذ بضعة ايام ينام هنالك وكأنه لايملك بيتاً !..

وادركت الرأفة جاسماً ، ولكن ما العمل ؟.

— والله علوان ، لولم يكن اهل أخي اليوم عندنا ضيوفا زائرين لاعددت لك مجاز البيت .

— حسبك وانت كفؤ . أنا ممنون لك

وسكت . وأوشك جاسم ان يودعه . ثم قال وهو يستعطف ويتلطف :

— ألا تقرضني آنة ، اشتري بها ثلجاً ، فاني عطشان .

— « أي ! » لك ذلك في غير منة .

وراح جاسم يبحث في جيبه وهو فرح اذ وفق خير توفيق لاغاثة صاحبه واعانته . ولكنه لم يجد شيئاً . فعلته حمرة الخجل وحار وارتبك . واذ شهد

(١) البطيخ الاحمر هو (الركي) بالكاف الفارسية كما تسميه عامة العراق .

علوان ارتباكه فهم الحقيقة فامعضه مافعل ، لانه اخجله ، فقال له وهو يحاوره :

— لاتكترث ياصاحبي ، فلسنا ولله الحمد بمتعودين على الثلج .

— والله ، ظننت انني ما ازال املك ثلاث آنات . وقد نسيت ، فانني اشتريت بها هذه البطيخة التي ترى . ورأي ان خير ما يستر به خجله ويعين به صاحبه هو اعطاؤه نصفها فهم بها يقسمها بسكين صغيرة صدئة اخرجها من جيب (سترته) الايمن . وكان الحمال يأبى قبول ما احسن به عليه صاحبه ويصر على ابائه . وهذا يجبره ، ويجبره ، حتى حمله على القبول . ثم تولى عنه ، يحمل نصف البطيخة الثاني الى ضيوفه . وقلبه يفعمه الاسف عليه ...

* * *

في سرداب بارد جوه ، تدور في سقفه مروحة كهربائية كبيرة ، جلس صديقان من السراة يتحدثان . وقد وقف بين يديهما خادم يقدم لهما اقداح القناع (البيرة) المثلوجة مزاجها (الناملیت) بين ساعة واخرى .

— يا أخي الحر أضحى شديداً يزهق الارواح ، هذه الايام . وانى لنادم على تنكبي عن الذهاب مع أبن عمي الى مصائف ايران ، وقد قصد اليها ليقضي فيها شهرين او ثلاثة ، فهنيئاً له .

— فقد اخطأت ولاشك . على انك مستطيع الذهاب الآن ... أصحبني اذا شئت ، فانني ذاهب الى جبل لبنان بعد يومين .

— سأفكر في الأمر .

وسكت بضع دقائق ثم استمر :

— نعم الاولى لي ان اذهب معك . وليس من مانع يمنعني من الذهاب — اليوم — فقد جاءتني أمس « واردات » مضخاتي .. أف ما

هذا الحر القاسي ، أو قد تفتحت لنا ابواب جهنم ؟ ! والتفت الى الخادم يخاطبه :

— شاكر ! هات « شاندي »

وعاد يحاور صاحبه :

— تكاد بطني تنفجر من كثرة الشرب وما زلت عطشان . يا له من صيف ملعون .. انى لأرجح الشتاء على كل حال .

وكان صاحبه يرفع كأسه الممتلئة الى فمه فيحتسي منها اكثر من نصفها. ثم يجيب صاحبه باسماً :

— لا تكن انانياً الى هذا الحد يا صديقي . فان كنت ترجح الشتاء على الصيف كما يرجحه معظم الاغنياء في البلد فهنالك من يرجح الصيف عليه . . أولا تعلم : « ان النصيف للفقير ؟ » . . .

* * *

ايجاد العمل للفقير خير من مساعدته

اذا رمت اسداء الجميل الى امرئ ... فقير كواه العدم حيناً فاذقعا
فاوجد له اوجد له عملا به ... يسد احتياجاً كان ذلك انفعا
تعلمه في ذلك الجد راغباً ... وتقصيه عن داء التكاسل مسرعاً
فانت ان ساعدت بالمال معدما ... بثثت به روح التكاسل اجمعا
وعلمته حب التواني وقدته ... الى سيء الاحوال فانقاد مزمعاً
هنالك لا تبقى لديه شهامة ... ويصبح عضواً حقه ان يقطعا

« طاهر النعمان »